مجلة روافد
للدراسات والأبحاث العلمية في العلوم الاجتماعية والإنسانية
المجلد 07 (02) جوان 2023 ص ص 855-872

تاريخ الجزائر الثقافي بين واقع الدراسة التاريخية وآفاقها

Algeria's cultural history between the reality and prospects of historical study

نذير معيزي*

جامعة الدكتور يحيى فارس المدية (الجزائر).

البريد الالكتروني المهني: maizi.nadhir@univ-medea.dz

تاريخ الإيداع	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2022/12/09	2023/03/03	2023/06/01

الملخص: تهدف هذه الدراسة إلى معالجة أهم الإشكاليات التي يطرحها تاريخ الجزائر الثقافي والتي يمكن اعتبارها امتدادا فلسفة التاريخ، وباستخدام المنهج التحليلي النقدي، يمكن التساؤل في طبيعة الصعوبات التي تحول دون تحقيق الموضوعية في التاريخ، وبهذا الخصوص، يمكن تعميم هذه التساؤلات في دراسة تاريخ الجزائر الثقافي وآفاقه، وقد تم التوصل إلى أن تاريخ الجزائر الثقافي يرتكز إلى الأسس نفسها التي عالجتها فلسفة التاريخ، أي أنه يشغل مجالا للفهم والتفسير، وهو الشي الذي يرجح إمكانية ارتقائه إلى صنف المعرفة العلمية، وفي ضوء هذه النتائج تقترح الدراسة اعتبار تاريخ الجزائر الثقافي علما.

الكلمات المفتاحية: *فلسفة؛ تاريخ؛ علم؛ منهج؛ آفاق*

Abstract: This research aims to address the most important problems posed by the cultural history of Algeria, which can be considered as an extension of the philosophy of history. It has been concluded that the cultural history of Algeria is based on the same foundations that the philosophy of history has dealt with, that is, and it occupies a space for understanding and interpretation, which is the thing that is likely to be elevated to the category of scientific knowledge..

Keywords: *Philosophy; history; Science; curriculum; prospects*

* **المؤلف المرسل**

مقدمة:

نحاول أن نعالج في هذا المقال، تاريخ الجزائر الثقافي بين واقع الدراسة التاريخية وآفاقها، الإشكاليات المنهجية الرئيسة ذات الصلة بهذا الحقل من الدراسات، وذلك لما تكتسيه من أهمية في بعث وقراءة التراث من خلال رؤية نقدية تربط بين الفهم والتفسير وتحاول أن تثيره في إطار منهج البحث في الدراسات الاجتماعية، فكثير من الدراسات في تاريخ الجزائر الثقافي لم تدرك الغاية المنهجية واكتفت بسرد هذا التاريخ، وهذا قد يثير الكثير من الغموض حول المنهج في تفسير الظاهرة الثقافية عبر التاريخ، وعليه فإن بعث هذا الجانب أصبح من الضروريات، وتبعا لذلك فإن هذه الدراسة تنظر في تاريخ الجزائر الثقافي من خلال المعالجة المفهومية، وذلك من خلال رصد أهم المفاهيم وتعريفها، وهو من شأنه أن يعطي صورة واضحة عن أهم المصطلحات كالثقافة والتاريخ والتراث، بالإضافة إلى المعالجة المنهجية، وهو من شأنه أن يثير السؤال حول إمكان هذا الحقل من الدراسات وشروطه الموضوعية.

بالإضافة إلى المعالجة السوسيولوجية لتاريخ الجزائر الثقافي، إذ تهدف إلى إعادة تعريف الظاهرة التاريخية باعتبارها ظاهرة اجتماعية، فكما هنالك تاريخ للطبيعة هناك دائما طبيعة في التاريخ، وعليه فإن هنالك ترابطا بين تاريخ الجزائر الثقافي ومنهج البحث في الدراسات الاجتماعية، وفي الوقت نفسه التساؤل في واقع وآفاق تاريخ الجزائر الثقافي، الشيء الذي يعطي نظرة تقريبية حول مستقبل هذا التاريخ.

إن هذه الدراسة هي قراءة لمنهج البحث في تاريخ الجزائر الثقافي بمختلف أبعاده ومكوناته، وهو من شأنه أن يثري هذا المجال برؤى وأفكار جديدة، فالتاريخ لا يمكن تصوره إلا في إطار التعدد، كما أنه لا يمكن دراسة التاريخ مجردا من المذاهب الفلسفية، وبهذا الخصوص فقد أثيرت الكثير من الأسئلة حول طبيعة المنهج الذي يمكن أن يرتكز إليه تاريخ الجزائر الثقافي خاصة في ظل تعدد المدارس التاريخية.

وعليه تشمل هذه الدراسة إشكالية كتابة تاريخ الجزائر الثقافي، بمعنى البحث في الشروط التي بواسطتها يمكن أن يكون تاريخ الجزائر الثقافي علما وفي الوقت نفسه التساؤل فيما إذا كان تعدد مناهج القراءة يتعارض مع وحدة موضوعه، وللإجابة عن هذا السؤال كان لابد من البحث في العوائق والصعوبات التي تحول دون كتابة تاريخ الجزائر الثقافي، وهو الشيء الذي يتطلب تحديد الوسائل العقلانية والموضوعية في كتابته.

كما قمنا بتوجيه هذه الورقة البحثية وفق الرؤية الإشكالية الآتية:

هل تعدد مناهج البحث التاريخي في دراسة تاريخ الجزائر الثقافي يتعارض مع مفهوم الوحدة والتجانس في التاريخ؟ ما هي حدود الذاتية والموضوعية في دراسة تاريخ الجزائر الثقافي؟ وهل يمكن اعتبار تاريخ الجزائر الثقافي علما؟.

1. مفاهيم خاصة في دراسة تاريخ الجزائر الثقافي

أضحت المعالجة المفاهيمية في الدراسات التاريخية تحتل مكانة بارزة في تصور الإطار العام للدراسة، ويجدر بالباحث أن يحسن استثمار هذا الجانب إذا ما أراد أن يقدم دراسة شاملة عن موضوع بحثه، كما أنه يوضح الرؤية حول طبيعة الأسس التي يرتكز إليها، وتبعا لذلك، فإنه لا يمكن تصور البحث العلمي بوصفه منهجا مستقلا عن هذا الجانب، وهو ما يركن إليه تاريخ الجزائر الثقافي، وقد لاحظنا أن أهم هذه المفاهيم تدور حول تعريف الثقافة والتراث والتاريخ.

1.1 مفهوم الثقافة

إن للثقافة أهمية كبيرة في تاريخ الحضارات، وذلك لما تلعبه من أدوار في إبراز قيمتها ومدى إسهاماتها في الرقي والتطور الاجتماعي، فالثقافة جزء لا يتجزأ من الحضارة، والتاريخ هو في حقيقة الأمر، دراسة للحضارات، إن الحضارة نشأت نتيجة التفاعل، ومن: "الواضح أن بدء الحضارات لم يكن نتيجة العوامل البيولوجية أو البيئة الجغرافية، كل تعمل بمفردها فلا ريب أن نتيجة نوع ما من التفاعل بينها جميعا وبعبارة

أخرى، ليس العامل الذي نسعى للتعرف إليه، شيئا مفردا لكنه متعددا، هو ليس وحدة لكنه علاقة" (توينبي، 2011، صفحة101)، وبمكن تعريف الحضارة Civilization باعتبارها: "مجموعة ظواهر اجتماعية مركبة ذات طبيعة للتناقل، تتسم بسمة دينية أخلاقية، جمالية فنية، تقنية أو علمية، ومشتركة بين كل الأجزاء في مجتمع عريض أو في عدة مجتمعات مترابطة" (لالاند، 2001، صفحة172)

إن الثقافة تشمل المنتوج الديني والأخلاق وفلسفة الفن والجمال والعلوم والفنون، وبغض النظر عن الاشتقاق اللغوي للثقافة الذي يرجع إلى الفعل ثَقِفَ بمعنى الفهم والفطنة فنقول: "ثقف الشيء ثقفا وثِقافا وثقوفة: حَذَقه. ورجل ثَقْف وثَقِفٌ وثَقُفٌ: حاذق فهم" (منظور، 1981، صفحة492)، لا يمكن العثور عن وحدة لغوية للثقافة بين الثقافتين العربية والغربية، فالثقافة Culture في المعجم الفرنسي هي من: "الفعل cultivar أي الأرض التي نزرعها وقد تدل على مجموعة المعارف المكتسبة وأيضا على الحضارة مثل الحضارة الغربية" (rousse, 2015, p103) والشيء الذي قد يحمل على التعجب، هو الرابطة بين مفهوم الثقافة وزراعة الأرض، فالدور الذي يقوم به المثقف، لا يختلف عن الدور الذي يقوم به المزارع، وهو الشيء الذي يمكن التنبؤ به من الثقافة.

وعليه فإن الثقافة هي النسيج الكلي من الأفكار والمعتقدات والعادات والتقاليد والقيم، وفيما يبدو أن هذا المفهوم هو أحد ثمار الثقافة الغربية، غير أنه لا يمكن أن نفهم من ذلك نفيا صريحا للثقافة الشرقية، لكن الشيء المقصود من وراء ذلك هو التعريف التداولي للمفهوم الذي بدأ مع عصر النهضة الأوروبية، بمعنى أن : "مفهوم (ثقافة) ثمرة من ثمار عصر النهضة، عندما شهدت أوروبا في القرن السادس عشر انبثاق مجموعة من الأعمال الفنية والأدبية الجليلة في الفن وفي الأدب وفي الفكر" (نبي، 2000، صفحة25)، وإذا ما قارنا بين مفهوم الثقافة في الحضارة الشرقية والغربية، فإننا نجده عند الغرب قد ارتكز على الاستقراء، وهذا بخلاف الحضارات الشرقية الغارقة في الــتأمل.

2.1 مفهوم التراث والتاريخ

يعتبر موضوع التراث من القضايا التي تثار بخصوصها الكثير من الأسئلة، وبمعنى آخر، فإن دراسة تاريخ الجزائر الثقافي يحيلنا مباشرة إلى الحديث عن التراث وأصنافه، أهميته وسبل المحافظة عليه لاتصاله المباشر مع الذاكرة الجماعية، فالحفاظ على هذه الأخيرة هو الحفاظ على التراث ذاته، كما مثل هذا المفهوم النواة الجديدة للتراث العالمي الذي تضمنته اتفاقية التراث العالمي الثقافي والطبيعي لعام 1972، وقد لاحظت هذه الاتفاقية أن: "التراث الثقافي والتراث الطبيعي مهددان بتدمير متزايد لا بالأسباب التقليدية للاندثار فحسب وإنما أيضا بالأحوال الاجتماعية والاقتصادية المتغيرة التي تزيد من خطورة الموقف بما تحمله من عوامل الاتلاف والتدمير الأشد خطرا" (الثقافة، 1972، صفحة88)

إن الاهتمام المتزايد بالتراث، هو نتيجة طبيعية لنمطية النظام العالمي الجديد الذي أضحى يهدده بالاندثار والتلاشي، وقد وردت هذه الكلمة في مواضع مختلفة من القرءان الكريم، وذلك في قوله تعالى من سورة مريم الآية السادسة: "يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا"، فالمقصود من كلمة يرثني هو النبوة وليس المال، أي على ميراث النبوة (كثير، 2000، صفحة1179)، وفي سورة الفجر الآية رقم 19 في قوله تعالى: "وتأكلون التراث أكلا لما" وردت كلمة التراث بمعنى الميراث الذي يرثه الناس من أموال وعقارات وغير ذلك (كثير، 2000، صفحة1994)

والتراث من الفعل الثلاثي وَرِثَ وقد جاءت على معنيين المال والمجد، وعليه يظهر أن التراث بهذا المعنى له وجهان، مادي ومعنوي، وبصفة عامة، فإن التراث كل ما يتوارثه الإنسان ويُحافظ عليه، وفي اللغة الفرنسية تُعبّر كلمة Patrimoine عن التراث، وهي كلمة من أصل لاتيني مكون من شقين، الأول بمعنى الأب، والثاني بمعنى التعليم

والإرشاد والنصح، فالتراث يتحدد في معنيين هما: "1- مجموع الممتلكات الموروثة عن الأب أو الأم 2- تراث مشترك لمجموعة أو مجتمع" (rousse, 2015, p307)

وعليه يمكن اعتبار التراث مادة التاريخ، والتاريخ هو: "فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضي من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا" (خلدون، 2014، صفحة291)، وتشمل المعرفة التاريخية الأحداث السياسية، السير والأخلاق، العلوم والفنون والآداب والفلسفة، وقد ظل التاريخ عند القدامى يخضع للسرد الذي لا يتقيد بمنهج الدراسة، فـــ: "الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال الاجتماع في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور، ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق" (خلدون، 2014، صفحة291).

فالتاريخ هو علم قائم بذاته، ويحتاج فيه المرء إلى جملة من المعارف، وبهذا الخصوص، فإنه لا يمكن الوصول إلى الحقيقة أو فكرة القانون، إلا من خلال الدراسة الاستقرائية التي ترتكز إلى ملاحظة الظواهر الاجتماعية ودراسة خصائصها وتعميم ذلك في دراسة الظواهر التاريخية، وهو الأمر الذي يجب تعميمه في دراسة تاريخ الجزائر الثقافي.

3.1 التاريخ والثقافة

إن العلاقة بين الثقافة والتاريخ علاقة تأثير وتأثر، وإذا كنا لاحظنا سابقا الاختلاف في تحديد مفهوم الثقافة بين من ينظر إلى الثقافة باعتبارها معرفة كل شيء وبين من ينظر إليها باعتبارها نسبية وتقريبية، يمكن أن نلاحظ الاختلاف في تفسير التاريخ، وهذا فيما إذا كان علما يرتكز إلى المنهج الاستقرائي، أو فيما إذا كانت فلسفة لا ينظر إلى ما كان من الحوادث والظواهر إلا باعتبار ما يجب أن تكون، وهكذا فإن الرابط بين التاريخ

والثقافة كالعلاقة بين الجسد والروح، فلا يمكن الفصل بينهما، فلكل ثقافة تاريخ كما يجب أن تكون لدينا ثقافة في التاريخ، فالثقافة تشمل التراث، وإذا كان التاريخ هو الماضي بالنسبة للثقافة فالعلم هو حاضرها من خلال إدراك المشكلات الراهنة والفلسفة هي مستقبلها من خلال التنبؤ بطبيعة هذه المشكلات، فكل قراءة للتاريخ والتراث، يجب أن تكون قراءة نقدية وموضوعية، ورغم تعدد مناهج القراءة المعاصرة للراهن الثقافي، إلا أنه يجب أن تكون على أكبر قدر من الموضوعية، فـــ: "فصل الذات عن التراث عملية ضرورية، إنها الخطوة الأولى نحو الموضوعية" (الجابري، 1993، صفحة23)

2. إشكالية دراسة تاريخ الجزائر الثقافي

يهدف هذا الجزء من الدراسة إلى تحديد العوائق التي تتعرض الباحثين في دراسة تاريخ الجزائر الثقافي، وهو الشيء الذي يحول دون الارتقاء به إلى منزلة العلوم الأخرى، بمعنى البحث في الشروط التي بواسطتها يمكن أن يكون تاريخ الجزائر الثقافي علما قائما بذاته، وإذا كان كذلك، فهل تعدد مناهج البحث التاريخي يتعارض مع وحدة موضوعه، وهو الأمر الذي يرتقي بنا في مراتب هذه الإشكالية إلى رسم الحدود بين الذاتية والموضوعية في تاريخ الجزائر الثقافي، إن الوحدة والتجانس في الكتابة التاريخية هي نتيجة لمجموعة من القواعد التي يرتكز إليها منهج البحث في التاريخ، فتعدد النصوص التاريخية على سبيل المثال، هو تعدد من الداخل، لكنه من الخارج يظل يرتكز إلى هذه الوحدة المنطقية.

وعلم التاريخ يجب أن يرتكز إلى هذه الوحدة، إن كثيرا من التزييف الذي قد يحصل على مستوى الدراسات التاريخية هو نتيجة لافتقارها إلى هذه الوحدة المنطقية، وعليه: "على الرغم من كثرة موضوعات العلم وتعدد مناهجه، فإنه يعتبر أمرا واحدا بالنسبة إلى الذات التي تدركه" (بلانشي، 1986، صفحة95)

1.2 تعدد مناهج القراءة

إن الدارس للتاريخ، يجد الكثير من التعقيد والتناقض، نظرا لتعدد مشكلاته، وتاريخ الجزائر الثقافي يحمل الكثير من التناقض وهذا لتشابك وتداخل القضايا التي يعالجها، وإذا كان موضوع تاريخ الجزائر الثقافي هو جميع الأعمال التي أنتجها وابتكرها الإنسان الجزائري عبر التاريخ، فإن مسألة التراث تظل محل جدل وهذا بالنظر إلى تنوعه وتعدد أشكاله وتداخله في كثير من الأحيان مع فضاءات متعددة كحوض البحر الأبيض المتوسط أو الفضاء المغاربي والإفريقي، وفي ظل التأكيد على الهوية الثقافية الجزائرية التي تجمع بين الدين واللغة العربية والوطن، وهو ما أدرجه أحمد توفيق المدني في مستهل كتاب الجزائر، وهذا من خلال قوله: "وكن غيورا متحمسا، وكن متفائلا قوي الإيمان بمستقبل الجزائر الباهر، ولتتخذ شعارك في حياتك وأعمالك هذه الكلمات: الإسلام ديني العربية لغتي الجزائر وطني" (المدني، 1350ه، صفحة04)

إلا أن هذه الفرضية شابها الكثير من الغموض ونهضت طائفة أخرى تدعو إلى قيم جديدة، وإعادة قراءة التراث بجميع أبعاده بما في ذلك البعد الأمازيغي، وهكذا فقد تعددت مناهج القراءة لتاريخ الجزائر الثقافي، ومن بين هذه القراءات القراءة الدينية التي ترتكز إلى ترسيخ البعد الإسلامي الذي يجمع بين الدين الإسلامي واللغة العربية وعلى منهج التربية والتعليم والإصلاح.

ومن بين الذي قادوا هذا التيار المناهض للفكر الاستعماري وللطرق الصوفية الشيخ عبد الحميد بن باديس، فبالموازاة مع الفكر الإصلاحي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ظهر تياران الأول أساسه: "توجيه الطاقات والجهود نحو ناحية التربية والتعليم وتكوين نخبة من الدعاة مدربة على مناهج الدعوة، مسلحة بالعلم والمعرفة، مطلعة على أصول الدين وعقائده" (طالبي، 1997، صفحة06)، وكان الرأي الثاني يقوم على أساس: "ثوري عنيف يزلزل سلطان البدع المستحكمة، ويهدم العادات المتمكنة، وهذا

الرأي يمثله الشيخ عبد الحميد بن باديس" (طالبي، 1997، صفحة07)، وهما إن اختلفا في الطريقة والمنهج، غير أنها يتفقان في الغاية، إلا أن القراءة الدينية تفتقر إلى الموضوعية، ويدفعها الحماس الذي قد يحجب عنها النظرة العقلية، فهي وإن رفعت شعار الأصالة، غير أنها تظل قراءة لا تاريخية، فـــ: "القراءة السلفية للتراث قراءة لا تاريخية، وبالتالي فهي لا يمكن أن تنتج سوى نوع واحد من الفهم للتراث هو: الفهم التراثي للتراث" (الجابري، 1993، صفحة13)

ومن مظاهر تعدد مناهج القراءة لتاريخ الجزائر الثقافي، القراءة السياسية، وفي مقدمتها القراءة اليسارية الاشتراكية، وهذه القراءة نشأت تحت تأثير التغيرات السياسية التي طرأت على العالم بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، والتي أفرزت بروز تيارين أساسيين هما الاشتراكية والرأسمالية، ويربط الاشتراكيون تاريخ الجزائر بالتحرر الذي يفضي إلى القضاء على جميع أشكال الفردانية، وهكذا فإنه لا يمكن تصور الاشتراكية socialisme إلا في إطار نظام من الجمعيات التعاونية المناقضة للفردانية المطلقة (توشار، 2010، صفحة744)

بالإضافة إلى القراءة الليبيرالية الرأسمالية التي ترتكز إلى الحرية والفردانية، وقد ظهرت الليبيرالية بداية القرن التاسع عشر، وكانت أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية أحد أبرز أقطابه، فالليبيرالية من الناحية الفلسفية هي: "فلسفة تقدم لا يتجزأ ولا يقبل الإعادة عكسا يتواكب فيه التقدم التقني وتقدم الرفاه والتقدم الفكري والتقدم الأخلاقي" (توشار، 2010، صفحة688)

وعرفت الجزائر هذا النظام بعد أحداث 1988 التي أدت إلى تبلور فكرة التعددية السياسية، وهذا بموجب دستور عام 1989، والذي تكلم عن الحق في تأسيس جمعيات سياسية (يوسف، 2010، صفحة114)، وتأخر صدور قانون الأحزاب السياسية إلى غاية 1997 الذي أنشئ بموجبه حوالي 28 حزبا سياسيا (المتحدة، 2006، صفحة06)، وبغض

النظر عن طبيعة هذين التيارين، فإنهما لا يختلفان عن التيار الديني، إذ يظلان يرتكزان إلى خلفية إيديولوجية، وهو ما يحول دون دراسة تاريخ الجزائر الثقافي دراسة علمية وموضوعية.

2.2 تعدّد النصوص التاريخية

ومن بين المشكلات التي تعرّض لها الباحثون في دراسة تاريخ الجزائر الثقافي، مشكلة تعدد النصوص التاريخية، وهنالك الكثير من الأمثلة بهذا الخصوص، فقد تختلف الرواية الفرنسية عن الرواية التركية أو حتى عن الرواية الجزائرية ذاتها، فـــ: "شعار معظم الجزائريين الذين تأثروا بالثقافة الفرنسية هو شعار الكتاب الفرنسيين أنفسهم الذي اكتفوا برمي العثمانيين بالوحشية الثقافية والاستبداد السياسي والشره الاقتصادي" (سعد، 1998، صفحة13)، وهذا من شأنه أن يعيق فهم هذه الحادثة في ظل شح النصوص والروايات، فأغلب الأرشيف العثماني تم نهبه، وإذن: "فهل نستغرب بعد ذلك أن نقرأ في الأخبار أن الصناديق المتعلقة بالآداب والفنون والتعليم قد ضاعت من أرشيفات العهد العثماني التي يملكها الفرنسيون" (سعد، 1998، صفحة30)، إن سبب جهل الجزائريين بتاريخهم هو لأنهم: "لم يجدوا بين أيديهم وفي متناولهم كتبا تبين لهم في لسانهم العربي المبين، ما يجب أن يعرفوه عن هذا الوطن المحبوب" (المدني، 1350ه، صفحة03)

3.2 الذاتية

إن كثيرا من التحيز الذي يقع في التاريخ، يعمل على تشويه الحقيقة التاريخية ذاتها، فالمطلوب من الباحث: "بذل كل الجهود التي يستطيعها، حتى يجعل هذه الأخيرة تابعة لحقيقة الوقائع التي يدرسها في عمله" (غولدمان، 1996، صفحة50)، وتبعا لذلك، فإن: "موضوع العلوم التاريخية يشتمل من الأفعال الإنسانية في كل الأمكنة وكل الأزمان شريطة أن تكون لهذه الأفعال في الماضي أو الآن أهمية أو تأثير على وجود وبنية المجموعة الإنسانية الحاضرة أو المستقبلية" (غولدمان، 1996، صفحة54)

ومن مظاهر الذاتية في تاريخ الجزائر الثقافي، تعدد المدارس التاريخية، ومن بين هذه المدارس، المدرسة الاستعمارية التي حاولت طمس ومحو جميع الأدلة التي تثبت رسوخ قدم هذه الأمة في التاريخ، وقد شملت أعمال المترجمين والعسكريين الفرنسيين الذي رافقوا الحملة الاستعمارية للجزائر وهذا وفق رؤية ممنهجة، وقد كان دافعهم إلى الكتابة إما هواية أو تنفيذا لأوامر فوقية ممثلة في قيادة جيش الاحتلال الفرنسي، وقد تمكنوا من الاستعلاء على الكثير من المخطوطات والوثائق خاصة العثمانية (الدين، 1984، صفحة63)، وبغض النظر عن طبيعتها التي ارتكزت إلى المقابلات الشفوية، غير أنها أماطت اللثام عن الكثير من الحقائق حول تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني (سعد، 2011، صفحة22)، كما نجد المدرسة الوطنية، التي برزت معالمها بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، كما ظهر أول حزب جزائري وهو نجم شمال إفريقيا الذي طالب بالاستقلال، ويشير النص الأول لنجم الشمال الإفريقي: "إن مسلمي الشمال الإفريقي لا يقومون بواجباتهم فقط بل بأكثر من واجباتهم، ولهذا فغنهم يطالبون بكامل حقوقهم" (قداش، دون ذكر سنة النشر، صفحة40)، وقد كان هدف المؤرخين الجزائريين هو تخليص التاريخ الوطني من المدرسة الاستعمارية، وتفنيد مزاعمها، وهو ما عمل على إبراز الهوية الوطنية.

3. واقع الدراسة التاريخية للثقافة الجزائرية

ويلزم من هذا الأمر تحديد موضوع تاريخ الجزائر الثقافي، والذي يمكن حصره في الثقافة الجزائرية، والتي يمكن تحديدها في مجالين أساسيين هما التراث الثقافي إذ يشير هذا المفهوم إلى: "التعبير الخلاق والمبدع الناتج عن وجود وحياة شعب في الماضي والماضي القريب والحاضر" (الأيكروم، 2003، صفحة07)، والتراث الطبيعي والذي يشمل جميع الأشكال الحيوانية والجغرافية والجيولوجية التي تشكلت نتيجة مجموعة من العوامل الطبيعية (الثقافة، 1972، صفحة04)، وقد درجت الدراسات التاريخية على

الاعتناء بالآثار الأدبية والعلمية لعلماء الجزائر في جميع العصور، يقول أبو القاسم سعد اللّه: "وقد كنت حقا مفتتنا بهذا الموضوع منذ بدأت أعني معنى التاريخ والوطنية. وكان هدفي من البحث هو إنتاج عمل يكشف عن مساهمة الجزائر في الثقافة العربية الاسلامية والانسانية عبر العصور" (سعد، 1998، صفحة13)

كما أن المقصود بتاريخ الجزائر الثقافي هو الفترة الممتدة منذ 1500 م إلى يومنا هذا، وعليه، فإن الحديث عن الجزائر خلال هذه الفترة لم ينشأ دفعة واحدة وإنما بالتدرج، فـــ: "الحدود السياسية لجزائر القرن التاسع لم تكن مضبوطة وثابتة. وكلمة الجزائر عندئذ لم تكن تطلق إلا على مدينة ساحلية صغيرة قليلة الأهمية، ولم تكن تعني بأي حال (القطر الجزائري) المعروف الآن" (سعد، 1998، صفحة40)، وهكذا فإن معالم الجزائر الحديثة بدأت تتضح منذ القرن الرابع عشر للميلاد، وإذا أردنا الحديث عن الخريطة السياسية قبل الوجود العثماني، فالمصادر تشير إلى أن منطقة شمال إفريقية كانت تحت سيطرة ثلاثة دول رئيسة هي: "المرينية والزيانية والحفصية" (سعد، 1998، صفحة40)

1.3 منهج الدراسة التاريخية للثقافة الجزائرية

وبناء على ما سبق يرتكز تاريخ الجزائر الثقافي إلى وحدة المنهج، وأنه يجب على المؤرخ التحري فيما ينقله، وهو ما أشارت إليه النزعة العلمية في التاريخ، ويشمل هذا النقد: "عزل موضوعه زمانا ومكانا عن سائر العصور والدول كما يعزل العالم الطبيعي الظاهرة الطبيعية عما هو حولها من ظواهر" (صبحي، 1975، صفحة166)، والقيام: "بعملية تركيبية لصياغة المادة التاريخية صياغة علمية متجاوزا بذلك مرحلة السرد والوصف إلى التعليل مفترضا أن الوقائع التاريخية معلولة لعلل وأسباب يسعى المؤرخ إلى استخلاصها" (صبحي، 1975، صفحة23)، وأخيرا الوصول إلى: "أحكام كلية تمكنه من التنبؤ في المستقبل" (صبحي، 1975، صفحة23)

أما تعدد النصوص التاريخية فعلى للباحث: "أن يترفع عن اتخاذ موقف وسط بين الطرفين" (رستم، 1955، صفحة86)، فإذا ما وجد على سبيل المثال أن عدد الجيوش الفرنسية التي قامت باحتلال الجزائر من العام 1830 في رواية تم تقديره برقم معين عن الرواية الأخرى، فلا ينبغي عليه أن يوفق بين الروايتين كأن يحسب حاصل قسمة بعضهما على اثنان مثلا، فهذا يعمل على تشويه الحقيقة التاريخية، أما في حال اتفاق الروايات، فعليه: "أن لا يتسرع في الحكم، فيظن أن جميع ما لديه من الروايات هو من النوع الذي يعول عليه" (رستم، 1955، صفحة87)، فقد ينقل الرواة بعضهم عن البعض الآخر دون إدراك الكذب، وعليه فالاجتهاد من الموجبات التي يضطر إليها في حال عدم الاتفاق، فـــ: "بواسطة الاجتهاد الإيجابي يحاول المؤرخ أن يستنتج أمرا معينا عن الماضي من مجرد تثبته من أمر آخر تنص عليه الأصول" (رستم، 1955، صفحة121)

2.3 سوسيولوجيا تاريخ الجزائر الثقافي

بعد معرفة منهج الدراسة التاريخية، يتأكد لدينا، أنه لا يمكن الفصل بين تاريخ الجزائر الثقافي وعلم الاجتماع، بمعنى أن انعكاسات هذا التاريخ وتطوره يعكس تطور المجتمع الجزائري، فالوجود العثماني في الجزائر، يمثل ظاهرة اجتماعية وتاريخية قابلة للدراسة وفق منهج لا يشذ عن المنهج المطبق في دراسة الظواهر الاجتماعية، وهذا المبدأ ذاته، قابل للتعميم على جميع الفترات التي أعقبت الوجود العثماني، بما في ذلك مرحلة الاستعمار والحياة الثقافية المعاصرة.

ووفقا لهذه الأدلة، فإن واقع الدراسة، يقضي بالضرورة البحث في طبيعة العلاقة بين تاريخ الجزائر الثقافي وعلم الاجتماع، وإذا كان المنهج هو: "المسار العقلاني للمفكر، الأخذ بالمنطق من أجل الوصول إلى المعرفة أو البرهنة على حقيقة ما" (عاطف، 2006، صفحة26)، فإن علم الاجتماع من المعارف التي ترتكز إلى الموضوعية، وهو المنهج نفسه الذي يجب أن يعتمد عليها الباحث في دراسة تاريخ الجزائر الثقافي، فإذا كانت على

سبيل المثال عملية النظر والتدقيق في محتوى الوثيقة يشمل التاريخ الذي ظهرت فيه، فإن ذلك يقضي بالضرورة دراسة الظاهرة التي يعالجها المخطوط دراسة اجتماعية، وهو الشيء الذي يجب أن يتطلع إليه يعالجه تاريخ الجزائر الثقافي.

ويرتكز منهج البحث في الدراسات الاجتماعية إلى الفهم والتفسير، وإذا كان الفهم يعتمد على تحليل العلاقات بين إشارات ذات دلالة مباشرة بالنسبة إلى الملاحظ باعتماده على تعريف العلاقات بين الأشياء (boudon, 1969, p17)، فإنه يمكن ربط ذلك بالتفسير الذي يرتكز إلى الملاحظة الخارجية، وعليه فإن منهج البحث في الدراسات الاجتماعية أو التاريخية يعتمد على الفهم والتفسير وذلك حسب متطلبات البحث ذاتها.

3.3 مستقبل تاريخ الجزائر الثقافي

لقد دعت الحاجة خلال الفترة الماضية والحالية إلى ضرورة كتابة في التاريخ الجزائر الثقافي، نظرا للتحديات الراهنة في ظل تنامي أطماع المستعمر بالسيطرة على الحياة الثقافية الجزائرية، من خلال نشر أفكاره ومعتقداته وتكوين فئة من الداخل لنشر هذه الأفكار، وفقا لقاعدة الغزو من الداخل، وهو الشيء الذي دعا نخبة من المثقفين إلى التعريف به وتلقينه للنشء.

ومن هذه الدراسات كتاب الجزائر لأحمد توفيق المدني، وفي حديثه عن هذا العمل يقول: "ها أنا ذا يا شبان المسلمين أقدم لكم كتاب الجزائر وقد جمعت لكم بين دفتيه ما يجب على كل جزائري مسلم أن يعرفه عن بلاده" (المدني، 1350ه، صفحة03)، وأيضا تاريخ الجزائر في القديم والحديث للميلي، وفي رسالة شكر أرسلها له الشيخ عبد الحميد بن باديس يقول فيها: "وقفت على الجزء الأول من كتابك تاريخ الجزائر في القديم والحديث، فقلت لو سميته حياة الجزائر لكان بذلك خليقا، فهو أول كتاب صور الجزائر في لغة الضاد صورة تامة سوية بعد ما كانت تلك الصورة أشلاء متفرقة هنا وهناك" (الميلي، 1964، صفحة09)، وكذلك دراسة تاريخ الجزائر العام لعبد الرحمان بن محمد الجيلالي

والذي عالج فيه الحركات الفكرية مع تراجم وسير لبعض أعلام الفكر الجزائري، وفي شرحه يقول: "محكما فيه الروح العلمية والأمانة التاريخية المحضة متجردا ما استعطت من كل تحمس أو انفعال كيفما كان نوعه أو تعدد مثاره، جامعا فيه ما لا يسع الإنسان جهله" (الجيلالي، 1965، صفحة08)

بالإضافة إلى دراسة أبو القاسم سعد اللّه والتي جاءت بعنوان تاريخ الجزائر الثقافي إذ يقول: "وكان هدفي من البحث هو إنتاج عمل يكشف عن مساهمة الجزائر في الثقافة العربية الإسلامية والإنسانية عبر العصور" (سعد، 1998، صفحة13)، وأيضا كتاب شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية لمولود قاسم نايت بلقاسم الذي جاء بهدف: "إحكام الصلة بين حلقات سلسلة تاريخ امتنا الجزائرية العريقة، وإبراز ما كان لها من شخصية دولية متميزة، ووجود دولي بارز وهيبة عالمية أطبقت الآفاق" (بلقاسم، 2007، صفحة09)، وعن آفاق هذه الدراسات فإنه يجب إعادة بعثها من جديد لما لها من أهمية بارزة في ترسيخ الثقافة الجماعية والحفاظ على معالم الذاكرة الوطنية، وتبعا ذلك، فكل حقل من الحقول التاريخية إذا لم تكن للباحث فيه رؤية فلسفية واجتماعية فإن ذلك قد يؤدي به إلى الوقوع في الذاتية، فــ: "التاريخ ليس مثل تشريح ضفدعة. فليس هناك تاريخ موضوعي مجرد بمعنى العلوم الطبيعية" (بلقاسم، 2007، صفحة27)

لا جدوى من الحديث عن مستقبل تاريخ الجزائر الثقافي دون إدراك العلاقة بين الثقافة والتاريخ، فكما أن التاريخ جزء لا يتجزأ من الثقافة، فكذلك الثقافة هي ظاهرة في التاريخ، وفي الوقت نفسه لا بد أن يلتزم الباحث باستخدام جميع الوسائل العقلانية والموضوعية في تفسير الظاهرة الثقافية، فــ: ""تاريخ العلم لا ينبغي أن يستعمل أداة للدفاع عن أي نوع من النظريات الاجتماعية أو الفلسفية، وإنما ينبغي أن يستعمل لغرضه هو فحسب، فيوضح، في غير تحيز، كيف يعمل المعقول ضد غير المعقول" (سارتون، 2010، صفحة29)

كما أن دراسة تاريخ الجزائر الثقافي لا بد وأن يتصف بالوحدة، فالعقل واحد في جميع مظاهر تطوره التاريخي، فـــ: "وحدة العقل البشري واستمرارية تطوّره: ذلكم هو اليقين القبلي الذي يفرض نفسه على المؤرّخ حتى قبل أن يبدأ ببحثه" (برهيه، 1987، صفحة17)، وعليه فإن مستقبل تاريخ الجزائر الثقافي يفرض نفسه بنفسه في الحاضر والمستقبل، إذ لا يمكن أن: "نتصور تاريخا بلا ثقافة، فالشعب الذي يفقد ثقافته يفقد حتما تاريخه" (نبي، 2000، صفحة76)، فـــ: "الشعوب التي ليس لها ثقافة ليس لها وجود" (سعد، 1998، صفحة25).

4. خاتمة:

وبناء على ما سبق يمكن القول أن الاشتغال بتاريخ الجزائر الثقافي يتطلب الكثير من الحكمة، فلا يمكن تصور التاريخ مجموعة من المواد يمكن الوصول بخصوصها إلى مجموعة من القوانين، ومع ذلك فإن الفهم لا يكتمل إلا بوجود تصور موضوعي للظاهرة التاريخية، المنهج الذي يحاول أن يعالج الأمور من زوايا مختلفة وأن لا يستعجل في الحكم، فيكون ذلك مطية للكذب وتزييف الحقائق التاريخية، وهكذا فإن هذه القاعدة هي الضامن المنطقي الوحيد لفهم تاريخ الجزائر الثقافي، وذلك بعيدا عن التطرف، وتبعا لذلك فإنه يمكن اعتبار هذا التاريخ علما.

ومن بين النتائج التي تحصلنا عليها هي:

- لا تشذ الدراسات التاريخية التي موضوعها تاريخ الجزائر الثقافي عن منهج البحث التاريخي الذي يرتكز إلى الموضوعية وتعليل الحادثة التاريخية.
- وهو الأمر الذي يجب على المؤرخ أن يلتزم به، خاصة في ظل العوائق والصعوبات التي تعترضه، والذي يجب عليه فهم طبيعتها، ففهم العائق التاريخي هو جزء لا يتجزأ من فهم طبيعة المعرفة التاريخية ذاتها.

- وتجدر الإشارة إلى أن الالتزام بمتطلبات الموضوعية التاريخية في دراسة الظاهرة الثقافية، لا تتعارض مع الذاتية، فالباحث حال تسلحه بالوسائل العقلانية والموضوعية لا يؤدي إلى نكرانه للذات في مرحلة معينة، إلى حجب دور الذات جملة وتفصيلا، فالموضوعية التاريخية هي السبيل الوحيد لترسيخ معالم الذاكرة الجماعية والدفاع عن الهوية الوطنية.
- وبمعنى آخر، يجب التمييز بين الذات السلبية التي لا تنظر إلا لنفسها، وهذا نوع من التطرف والغلو في التاريخ، وبين الذات الإيجابية التي تنظر إلى الآخر وتحترم رأيه.
- وعليه فإن تاريخ الجزائر الثقافي في ظل الالتزام بهذه الشروط، يمكن أن يرتقي إلى مصف المعرفة العلمية، كما لا يجب أن ننظر إليه بوصفه منهجا مستقلا بذاته، بل في علاقته بجميع العلوم الأخرى، وهو ما يرسخ فكرة البحث في فلسفة تاريخ الجزائر الثقافي.

5. قائمة المراجع:

المراجع باللغة العربية:

ابن منظور. (1981). *لسان العرب* (المجلد 1). القاهرة، مصر: دار المعارف.

أبو الفدا ابن كثير. (2000). *تفسير القءان العظيم* (الإصدار 1). بيروت، لبنان: دار ابن حزم.

أبو القاسم سعد الله. (1998). *تاريخ الجزائر الثقافي* (الإصدار 1). بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي.

أبو القاسم سعد الله. (2011). *أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر*. الكويت: عالم المعرفة.

أحمد توفيق المدني. (1350ه). *كتاب الجزائر*. الجزائر، الجزائر: المطبعة العربية.

أحمد محمود صبحي. (1975). *في فلسفة التاريخ*. الاسكندرية: مؤسسة الثقافة الجامعية.

أحمد يوسف. (2010). *كيف يصنع القرار في الأنظمة العربية*. بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحة العربية.

أرنولد توينبي. (2011). *مختصر دراسة التاريخ*. القاهرة، مصر: المركز القومي للترجمة.

أسد رستم. (1955). *مصطلح التاريخ* (الإصدار 2). بيروت، لبنان: منشورات المكتبة المصرية.

إميل برهيه. (1987). *تاريخ الفلسفة* (الإصدار 2). بيروت: دار الطليعة.

أندريه لالاند. (2001). معجم *مصطلحات الفلسفة التقنية والنقدية* (الإصدار 2، المجلد 1). بيروت، لبنان: منشورات عويدات.

جان توشار. (2010). *تاريخ الأفكار السياسية الاشتراكية الليبيرالية القومية السلفية* (الإصدار 1). دمشق، سورية: دار التكوين.

جورج سارتون. (2010). *تاريخ العلم*. القاهرة، مصر: المركز القومي للترجمة.

روبير بلانشي. (1986). *نظرية المعرفة العلمية*. الكويت: مطبوعات الجامعة.

سعيدوني نصر الدين. (1984). *طبيعة الكتابات التاريخية حول الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر*. الجزائر، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

عبد الرحمان ابن خلدون. (2014). *المقدمة* (الإصدار 7). الجيزة، مصر: دار نهضة مصر.

عبد الرحمان بن محمد الجيلالي. (1965). *تاريخ الجزائر العام*. الجزائر: مكتبة الشركة الجزائرية.

علي عاطف. (2006). *المنهج المقارن مع دراسات تطبيقية* (الإصدار 1). بيروت، لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

عمار طالبي. (1997). *آثار ابن باديس* (الإصدار 3). الجزائر، الجزائر: الشركة الجزائرية.

لوسيان غولدمان. (1996). *العلوم الانسانية والفلسفة*. القاهرة، مصر: المجلس الاعلى لثقافة.

مالك ابن نبي. (2000). *مشكلات الحضارة، مشكلة الثقافة* (الإصدار 4). دمشق، سورية: دار الفكر.

مبارك بن محمد الهلالي الميلي. (1964). *تاريخ الجزائر في القديم والحديث*. الجزائر، الجزائر: مكتبة النهضة الجزائرية.

محمد عابد الجابري. (1993). *نحن والتراث قراءات معاصرة في تاريخنا الفلسفي* (الإصدار 6). بيروت، لبنان: المركز الثقافي العربي.

محمد قنانش ومحفوظ قداش. (دون ذكر سنة النشر). *نجم شمال إفريقيا 1926-1937*. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

مولود قاسم نايت بلقاسم. (2007). *شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830* (الإصدار 2). الجزائر، الجزائر: دار الأمة.

المراجع باللغة الأجنبية:

La rousse. (2015). *Dictionnaire la rousse de français*. France: Maury à Malesherbes.

R Boudon. (1969). *les méthodes en sociologie*. Paris: P.U.F.